أبو السريّ الخزرجي

أديب منسيّ

نُشر في مجلة العرب، مج ٦٠، ج ١، ٢، ٣

رجب- رمضان ١٤٤٥هـ، شباط- نيسان ٢٠٢٤م.

للأدباء حظوظ، وللنصوص الأدبية والمصنّفات حظوظ كذلك، فذلك مشهور سائر الذكر، وهذا مغمور، أو منسيّ. ولتلك الأحاظي أسباب[١]، منها النبوغ، وطرافة المنجز الأدبي، والصلة بذوي السلطان، المعتنين بالأدب ورجاله، وتهيُّؤ الزمان، وأسباب أخرى قد تخفى علينا.

ومن أسباب شهرة بعضهم، عندنا اليوم، أن تهيّأ لآثارهم البقاء، والنجاة من الجوائح. فكانت معرفتنا بتلك الآثار سببًا إلى التعرّض لها، وفحصها، والحكم عليها. أما أولئك الذين انغمرت آثارُهم، وطُوي ذِكرها، ولم تبلغنا، فأنّى لنا أن نعرفهم، إلا إن جادت المصنفات القديمة بالترجمة لهم، وتدوين بعض آثارهم.

ومن ذلك الصنف الذي اجتاحت نتاجَه الجوائح، هذا الأديب الذي ذُكر أن له مصنفات غريبة، وهو أبو السريّ الخزرجي، الذي كان شاعرًا ناثرًا، ذا قدرة شعرية جيدة، واقتدار على النثر، ولا سيّما السرد، على هُدى ما وقفت عليه من أخباره.

ولم أعرف من اسمه سوى أنه سهل بن أبي غالب الخزرجي، وقيل: سهل بن غالب[٢]، وكنيته أبو السريّ، وأما تكنيته بابن السريّ، فأظنه تحريفًا[٣]. ومن الأخبار الشحيحة عنه أنه نشأ

---

[١] الحظّ يُجمع على حظوظ، وحِظاظ، أما أحاظٍ فقال الجوهري: كأنه جمع أحْظٍ، أي هو من جمع الجمع. انظر: اللسان (حظظ).

[٢] أمالي الزجاجي، ١٨، ووفيات الأعيان، ٢٢١/٥.

[٣] انظر: المصدرين السابقين، وورد ما أراه تحريفًا، في مطمح الأنفس، ٢١٢.

بسجستان، واتصل بالرشيد، والأمين، ولقي حظوةً عند أمه زُبيدة؛ لأنه أيّد الرشيد، ضمنًا، في جعل الأمين وليًّا للعهد[٤].

وكان من خبر أبي السريّ أن "ادعى رضاع الجنّ، وأنه صار إليهم، ووضع كتابًا ذكر فيه أمر الجن وحكمتهم، وأنسابهم وأشعارهم، وزعم أنه بايعهم للأمين بن هارون الرشيد، وليّ العهد، فقرّبه الرشيد، وابنه الأمين، وزبيدة أم الأمين، وبلغ معهم"[٥]، وقوله: (بلغ معهم) يعني أنه نال حَظوةً، ولقي تقديرًا، وعطاءً. ومع ما نال من الحَظوة لم يحفظ التاريخ شيئًا كثيرًا من نتاجه، ولا سيما كتابه الغريب، الذي ادعى فيه صحبة الجنّ!

ورُوي أن الرشيد لما عرف ما في الكتاب، قال قولة دقيقة: "إن كنت رأيت ما ذكرتَ، لقد رأيتَ عجبًا، وإن كنت ما رأيته، لقد وضعتَ أدبًا"[٦]. وهي كلمة تصلح ميثاقًا لتلقي أخبار الأدب والأدباء، ويبدو أن ذلك الكتاب غريب المنزع، عجيب المضمون؛ وذلك ما دعا الرشيدَ إلى نعت ما فيه بالعجَب.

وقد استوقفني تعقيب لابن خلّكان، بعد أن أورد خبر أبي السريّ وكتابه، قال فيه: "وأخباره كلها غريبة عجيبة"[٧]، فهل عنى أن أخبار الكتاب هي الغريبة؟ أو أراد أن أخبار أبي السريّ هي التي جمعت الغرابة والعجَب؟ لا أقضي برأي، فالضمير موهِم، ومهما يكنْ فالعجب والغرابة محيطان بأبي السري ونتاجه.

ونقل النديم عن ابن إسحاق أن الأسمار والخرافات كانت مرغوبًا فيها مشتهاة في أيام خلفاء بني العباس...فصنف الوراقون وكذبوا[٨]، وذكر النديم بعض من كانوا يعملون الخرافات والأسمار،

---

[٤] انظر: وفيات الأعيان، ٢٢١/٥.

[٥] وفيات الأعيان، ٢٢١/٥.

[٦] وفيات الأعيان، ٢٢١/٥. ونقل العبدري الشيبي كلّ كلام ابن خلكان عن أبي السريّ، ناصًّا الكلام إليه، في تمثال الأمثال، ٢٣٢/١-٢٣٣.

[٧] وفيات الأعيان، ٢٢١/٥.

[٨] انظر: الفهرست، ٣٣١/٢.

ومنهم سهل بن هارون (ت٢١٥هـ)، وكلثوم بن عمر العتابي (ت٢٢٠هـ)، وأحمد بن أبي طاهر طيفور (ت٢٨٠هـ)[٩]، والأولان معاصران لأبي السري، ويبدو أنهم كوّنوا تيارًا يُعنى بذلك الصنف من التأليف، ونظرًا إلى غياب تاريخ وفاة أبي السري، يصعب الحكم عليهم، أيهم أسبق، ولكنهم جميعًا استقوا من تراث العشاق العرب المشهورين، الذين تدووِلَتْ أخبارهم في الكتب المتقدمة، وصاروا مادة للسمّار، حتى إن النديم ذكر أسماء العشاق وصواحبهم، الذين كانوا من أحاديث السمر، وأُلّفت فيهم الكتب، ومنهم مشهورون، وغير مشهورين، وبعضهم ذوو أسماء مختلقة، على ما يظهر[١٠].

أما آثاره التي تُحُدّث عنها، ونُقِل بعضها، فقصيدة متنازَعة النسبة، وكتابه المذكور آنفًا، عن الجن، وهو مجهول العنوان، وكتاب آخر، لم يُذكر اسمه، ويبدو من عناوين من احتذوه، أنه من قصص العشق المتخيّلة[١١]. ونعته سزكين بالمقِلّ في قول الشعر[١٢].

ومن الحقّ أن أبا السَّرِي مشهور، على ما قال ابن خلكان، فقد بلغت شهرته الأندلس، ووصل أحد كتبه إليها، واقتناه المنصور بن أبي عامر، والخبر الذي ردّده بعض المصنفين، من مشارقة ومغاربة، أن المنصور كان مشغوفًا بذلك الكتاب، فكان مدعاةً لأن يقتفي بعضُهم طريقته، فاحتذاه حسان بن مالك بن أبي عبدة الأندلسي[١٣]، وجاء في خبر احتذائه إياه أن المنصور بن أبي عامر

---

[٩] انظر: المرجع السابق، نفسه.

[١٠] انظر: الفهرست، ٣٢٧/٢-٣٣١، فعنده (أسماء العشاق الذين عشقوا في الجاهلية والإسلام وأُلّف في أخبارهم)، و(أسماء العشاق من سائر الناس)، و(أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم في السمر). ومن الأسماء التي يُظَنّ اختلاقها (شغوف وعطوف)، و(ذوب ورخيم)، ومن الغريب (عاشق البقرة)!

[١١] قال سزكين: إن أبا السري "كتب رواية غرامية"! انظر: تاريخ التراث العربي، مج٢، ج٢٣٩/٣.

[١٢] انظر: تاريخ التراث العربي، مج٢، ج٢٣٩/٣.

[١٣] انظر: جذوة المقتبس، ٣٤٦، ومعجم الأدباء، ٨٠٦/٢، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب، ٣٣، ومطمح الأنفس، ٢١٢.

شُغف بكتاب أبي السَّرِيّ،، فدخل عليه حسان، والكتاب بين يديه، "وهو به كلِف، وعليه معتكف، فخرج من عنده، وعمل على مثاله كتابًا سمّاه بكتاب (ربيعة وعقيل)"[١٤].

وهذا الخبر منقول عن الحُميدي (ت٤٨٨هـ)، وفيه أن حسان عمل على مثال كتاب أبي السَّرِيّ الذي ألفه في أيام الرشيد، كتابًا سماه كتاب (ربيعة وعقيل)، ثم قال عن أبي محمد بن حزم: "وهو من أملح ما أُلِّف في هذا المعنى، وفيه من أشعاره ثلاثمئة بيت"[١٥]. ونقله الضبي (ت٥٩٩هـ)، وياقوت (٦٢٦هـ)[١٦].

واحتذى منوال أبي السَّرِيّ أيضًا صاعد الأندلسي، فألّف كتابًا سمّاه: (كتاب الهَجَفْجَف بن غَدَقان بن يثربي مع الخَنّوت بنت مَخْرمة بن أُنيف)، وكتابًا آخر في معناه سماه (كتاب الجوّاس بن قَعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء)[١٧]، وإغراب صاعد في عنوان الأول منهما، يوحي بأنه طالع في كتاب أبي السَّرِيّ ما حفزه إليه، وأغراه به؛ لأن العهد بالمعارِض أو المقلِّد أن يتقرّى سبيل المعارَض، وينهج نهجه.

ووقع في (الوافي بالوفيات) سقْط، غيّر المعنى، ففيه أن حسان بن مالك دخل على المنصور، وبين يديه كتاب أبي السَّرِيّ، الذي أُلّف في أيام الرشيد، وسمّاه (كتاب ربيعة وعقيل)[١٨]، فأوهم السياق بأن هذا العنوان لكتاب أبي السَّرِيّ، وهو بعيد؛ لأن الصفدي ناقلٌ عمن قبله نصًّا.

ولكن ما ذلك الكتاب الذي احتُذي؟ لم يصرّح أحد باسمه، على ما هداني إليه النظر، غير أن قولهم (ألّفه أيام الرشيد)، يقرّب الظن بأنه كتابه عن صحبة الجن، فهو الذي حظي به واشتُهر،

---

[١٤] مطمح الأنفس، ٢١٢. وعنه نقل في نفح الطيب، ٥٤٨/٣.

[١٥] جذوة المقتبس، ٢٨١.

[١٦] انظر: بغية الملتمس،٣٣٣/١، ومعجم الأدباء، ٨٠٦/٢.

[١٧] انظر: جذوة المقتبس، ٣٤٦. وبغية الملتمس، ٤١٤/٢. والمعجب في تلخيص أخبار المغرب، ٣٣، ومعجم الأدباء، ١٤٤١/٤.

[١٨] انظر: الوافي بالوفيات، ٣٦١/١١.

غير أن هذا الظن يتزحزح قليلًا؛ لأن عناوين حسان وصاعد لكتبهما، توحي بأن الكتاب المقلَّد قصة عشق متخيّلة، وأن أبا السريّ وضع عنوانًا له، يحوي اسم رجل وامرأة، مثلما فعلا.

كل ذلك في دائرة الظن والاحتمال، غير أن الذي لا شك فيه، أن أبا السَّرِيّ كان مغرِبًا في تأليفه، معجِبًا بتصانيفه، وحسبه أن لقي اسمه ونتاجه شهرة في الأندلس، لم يحظ بها كثيرون.

وأبو السريّ شاعر مشهور، على ما قال ابن خلّكان[١٩]، ولكن شهرته لم تدعُه إلى الترجمة له! وهذا غريب؛ لأنه بشهرته صار عينًا من الأعيان!

ويبدو أن أبا السريّ كان مغرمًا بالتعجيب، ومخالفة المألوف، فكتابه ذاك وما قاله ابن خلكان من أن له أشعارًا حِسانًا وضعها على الجنّ والشياطين والسعالي[٢٠]، يؤكّد هذا الرأي، وغالب الظنّ أن تلك الأشعار على الجنّ وغيرهم، مذكورة في كتابه الذي أهداه إلى الرشيد؛ فهو مظِنّتها.

ومن الشعر الذي نُسب إليه، قوله في هجاء معاذ بن مسلم الهرّا النحوي، وكان معمَّرًا، أو في معاذ بن مسلم بن رجاء، مولى القعقاع بن شَور[٢١]:

إن معاذَ بنَ مسلمٍ رجلٌ ليس لميقات عُمره أمدُ
قد شاب رأس الزمان واكتهل الدهـ رُ وأثوابُ عُمْره جُدُدُ
قل لمعاذٍ إذا مررتَ به قد ضجّ من طول عمرك الأبدُ
يا بِكْرَ حوّاءَ كم تعيش وكم تسحبُ ذيلَ الحياةِ يا لُبَدُ
قد أصبحتْ دارُ آدمٍ خرِبتْ وأنت فيها كأنك الوتِدُ

---

[١٩] انظر: وفيات الأعيان، ٥/٢١٨.

[٢٠] وفيات الأعيان، ٥/٢٢١.

[٢١] ذكر الجاحظ أن القصيدة قيلت في معاذ بن مسلم بن رجاء، مولى القعقاع بن شَور. انظر: الحيوان، ٦/٣٢٧، وذهب ابن مكتوم إلى أن القصيدة لابن مُناذر، قالها في معاذ بن مسلم الحاجب، صاحب معاذ بن عبدالله الأسدي، ولم تُقَل في الهرّا. انظر: إنباه الرواة، ٣/٢٩١، حاشية المحقق، ٢، وسير أعلام النبلاء، ٨/٤٨٣، حاشية المحقق ١. وفي الدرة الفاخرة، ٣١٦ أنها في معاذ بن مسلم، "وكان صحب بني مروان في دولتهم، ثم صحب بني العباس، فطعن في مئة وخمسين سنة"، وفيه أنه يُقال في مثل مولّد: أعمرُ من معاذ. وانظر: المستقصى، ١/٢٥٣-٢٥٤، ومروج الذهب، ٢/٣٧٨.

تسأل غربانَها إذا نعبتْ كيف يكون الصداعُ والرمدُ؟
مصحَّحًا كالظَّلِيمِ ترفلُ في بُردين، منك الجبينُ يتقدُ
صاحبتَ نوحًا ورُضْتَ بغلةَ ذي الـ ـقرنين شيخًا لوُلدِك الولدُ
ما قصّر الجَدُّ يا معاذُ ولا زُحزِح عنك الثراءُ والعددُ
فاشخَصْ ودعنا فإن غايتَك الـ ـموتُ، وإن شدَّ ركنَك الجلَدُ[٢٢]

وهذه القصيدة من الشعر الذي اختار بعضَه الجاحظ، واصفًا الخزرجي بالإحسان، في ذكر النسر، وضربِ المثل به، وبلُبد[٢٣]، لأن رواية البيت عنده (يا نسر لقمان كم تعيش) في

---

[٢٢] سوائر الأمثال على أفعل، ٢٧٦. وهي في النشرة الأخرى لهذا الكتاب الذي جاء بعنوان (الدرة الفاخرة، ٣١٦)، وهو فيه منسوب إلى ابن عبدل، ولم أجد من وافقه على هذه النسبة.

والأبيات (١-٢، ٥-٧) في الحيوان، ٣/٤٢٣-٤٢٤، ٦/٣٢٧-٣٢٨، مغفلة النسبة في الموضع الأول، منسوبة إلى الخزرجي في الآخر. والأبيات (١-٦) في عيون الأخبار، ٤/٥٩-٦٠، لبعض الشعراء، و(٥-٦) في كتاب المعاني الكبير، ٢٥٨، بلا نسبة، و(١-٢، ٤-٦) في العقد الفريد، ٢/٥٥، لابن مناذر، و(١-٢، ٤-٨، ١٠) في أمالي الزجاجي، ١٧-١٨، لسهل بن غالب الخزرجي، و(١-٢، ٤-٦)، في أخبار أبي القاسم الزجاجي، ٦٨-٦٩، لسهل بن غالب الخزرجي، و(١-٢، ٤، ٥-٦)، في ربيع الأبرار، ٢/٤٢٠، غير منسوبة، والقصيدة كلها في مجمع الأمثال، ٢/٤٠٤، غير منسوبة، و(١-٢، ٤-٦) في مروج الذهب، ٢/٣٧٨، للخزرجي، والبيت الثاني فحسب، في ثمار القلوب، ٣٢٣، منسوبًا إلى الخزرجي، و(٣، ٥-٦) في محاضرات الأدباء، ٣/٦٥٣، غير منسوبة، و(١-٦، ١٠) في التذكرة الحمدونية، منسوبة لسهل بن غالب الخزرجي، و(١-٢، ٤-٥) في إنباه الرواة، ٣/٢٩٠-٢٩١، غير منسوبة، و(١-٢، ٤-٧، ١٠) في بغية الوعاة، ٢/٢٩٢، لابن مناذر، و(١، ٤-٦)، في نور القبس، ٢٧٦، غير منسوبة، والأبيات ما عدا التاسع في وفيات الأعيان، ٥/٢١٨-٢١٩، منسوبة لسهل بن أبي غالب، وكذلك في سير أعلام النبلاء، ٨/٤٨٣-٤٨٤ منسوبة لأبي السري، و(١-٤، ٧-١٠) في حياة الحيوان الكبرى، ٣/٦٨٦، بلا نسبة. والقصيدة مثبتة في: شعر ابن مناذر، عبدالعزيز إبراهيم، مجلة المورد، العدد ٤، ٢٠٠٢م، ٩٤.

[٢٣] انظر: الحيوان، ٦/٣٢٧، وإلى هذا أشار المسعودي. انظر: مروج الذهب، ٢/٣٧٧-٣٧٨.

موضعين[٢٤]. وأورد منها ابن قتيبة بيتين، وقال: "خصّ الغراب بالمسألة؛ لصحة بصره وبدنه"[٢٥]، وجعل الثعالبي قوله (رأس الزمان)، شاهدًا على التركيب الإضافي الذي عُني به في (ثمار القلوب)[٢٦].

وفي هذه القصيدة تعبيرات فنية محكمة، وافتنانٌ في بناء التراكيب، واستعانة بالبيان، والمبالغة، وإشارة متقنة إلى أسطورة (لُبَد)، إضافة إلى ضروب أخرى غير خافية؛ وذلك ما جعلها تحظى بقبول جمهرة من المصنفين، فاختيرت كلها، أو دوّنت منها أبيات، على ما يظهر في التخريج.

وعلى أن هذا الشعر نُسب إلى ابن مُناذر، أرى الأخذ بما قاله الجاحظ، فهو أوثق في النسبة، لقرب عهده بالقائل، ولا سيما أنه قال مقال المثبِت: "وقد أحسن بعض المحدثين، وهو الخزرجي"[٢٧].

وهذا قول أبي بكر الصولي، إذ نصّ على نسبته إليه، وذكر كنيته[٢٨]، وأثبت النسبة كذلك ابن خلكان، إضافة إلى ستة مصنفين نصّوا على أن الشعر لأبي السريّ، على ما يظهر في تخريج الشعر، وإن اختلفوا في اسمه.

والعجب أن نجد هذا الشعر المحكَم، في بضعة مصادر، دون أن نقرأ ما يشفي الغليل عن قائله، ولا أن نجد نصوصًا أخرى له! تلك هي الحظوظ التي استهللت بها هذه المقالة!

---

[٢٤] انظر: الحيوان، ٤٢٣/٣، ٣٢٧/٦.

[٢٥] كتاب المعاني الكبير، ٢٥٩.

[٢٦] انظر: ثمار القلوب، ٣٢٣.

[٢٧] الحيوان، ٣٢٧/٦.

[٢٨] انظر: أمالي الزجاجي، ١٨.